ضعيف ومجزأ ومطارَد..

«إصلاح اليمن» يتشبث بأحلام الخلافة من تركيا (٢-٣)

الأمناء/ متابعات خاصة :

في 26 سبتمبر 1962، بدأت ثورة في شـــمال اليمن أطاحـــت بالنظام الملكي وأدت إلى تشكيل «الجمهورية العربية اليمنية»، أو «اليمن الشمالي»، وفي 14 أكتوبر 9631، اندلعت الثورة في الجنوب التي أدت في نهاية المطاف لاندلاع حرب أهلية. رحل البريطانيون من عدن وتشـــكلت «جمهورية اليمن الجنوبيـــة الشـــعبية»، أو «اليمـــن الجنوبي». استمرت الحركة الإسلامية في الشـــمال في النمـــو في النصف الثاني من القـــرن الماضي، ولكن ليس بنفس معـــدل الاتجاهـــات القومية واليسارية في ذلك الوقت التي هيمنت عـــلى الســـاحة السياســـية العربية وشـــكلت الهوية الوطنية خلال هذه الفترة الثورية.

وأكـــد التحليل أنـــه وبعد هاتين الثورتـــين، تكيف الإســـلاميون مع دورهم الثانـــوي برشـــاقة مذهلة، ودخلـــوا في تحالفـــات متتالية مع النظام في الشمال. واستقروا بشكل أســـاسي عـــلى دور في مواجهـــة الجماعـــات اليســـارية شـــمالاً كان يدعمها نظام اليمن الجنوبي.

وأوضح الباحث فارع المســـلمي: «وفي العقـــود التي تلـــت ذلك، تمكن قادة جماعة الإخوان المســـلمين من تـــولي مناصب قوية داخـــل الأجهزة الأمنية والعسكرية والمدنية، وأصبحت الجماعة تحـــت الرعاية الســـعودية في الســـبعينيات بعد أن طاردهم عبد الناصر في مصر، وعندما بدأت المملكة العربية السعودية في دعم الجماعات السنية على مستوى العالم وأصبحت مظلة لهـــا. وقد أثر ذلـــك على اليمن اجتماعيًا وسياسيًا.

ومـــع ذلـــك، لم يتخـــذ الإصلاح شـــكله الكامل حتى تسعينيات القرن الماضي، ووصل إلى ذروة قوته. وشدد الاتفاق المنشـــئ للاتحاد بين شـــمال وجنـــوب اليمن على مبـــدأ التعددية السياســـية، مما ســـاعد المنتسبين إلى جماعة الإخوان المســـلمين على الحصول عـــلى الإدارة الذاتية المحلية عن التنظيم الدولي. وضم الحزب الذي تم تشكيله حديثًا حينها، والذي يعرف الآن باســـم «الإصلاح»، أيضًا عددًا من الشخصيات المؤثرة وأصحاب الأعمال المحافظـــين والعائدين مـــن الجهاد ضد الســـوفييت في أفغانستان مثل عبد المجيد الزنـــداني، الذي توفي قبل أسابيع في المنفى بإسطنبول. أصبح حزب الإصلاح بشكل عام نقطة التقاء لجميع الجماعات اليمينية المحافظة: على الرغم من أنه لم يكن كل منتسب إلى الإصـــلاح عضـــوًا في جماعـــة الإخوان، إلا أن جميع المنتســـبين إلى جماعة الإخـــوان في اليمـــن كانوا بالضرورة جزءًا من الإصلاح.

عودة الخلافة

ومثل كل الجماعات الإســـلامية السنية السياسية في المنطقة، ارتفعت معنويات حزب الإصلاح وخيالاته بعد وصول أول حزب إسلامي في المنطقة إلى السلطة بفوزه بالرئاسة في مصر عام 2012. ومع ثورة 2011 وصعود محمد مرسي إلى السلطة في مصر، أصبـــح الإســـلاميون في اليمن أكثر قـــوة. وصلـــوا إلى ذروة اعتقادهم الطوباوي بأن "عصر التمكين وعودة الخلافة" على وشـــك أن ينكشـــف، كما جـــاء في كلمة ألقاهـــا في ذلك الوقت عبد المجيد الزنداني في ساحة التغيير بصنعاء. وبعـــد مرور أربعة عشر عامًا، لم تقم الخلافة في العالم حســـب رغبة الزنداني. وبدلاً من ذلك، توفي في عاصمة الخلافة الإسلامية الأخـــيرة. وحضر جنازتـــه أردوغان نفســـه، إذ تزامنت مع جنازة الزعيم الديني التركي الشهير حسن كيليتش (زعيـــم طائفة إســـماعيل آغا)، بعد عدم استجابة السعودية لطلب عائلة الزنداني بدفنه في مكة.

لكن احتفال حـــزب الإصلاح عام 2012 واجه مشـــكلة وحيـــدة: كان الوقت مبكرًا جدًا للاحتفال. وكما قادت القاهـــرة جماعة الإخوان المســـلمين إلى الهزيمة أمام الإســـلام السياسي الزيـــدي في الأربعينيـــات من القرن المـــاضي، فقد فعلت ذلـــك مرة أخرى في العقـــد الأول من القـــرن الحادي والعشرين ضد الحوثيين، وهي حركة إحياء زيدية مســـلحة مستوحاة من الإســـلام الســـياسي الثوري الإيراني والرغبة في التصدي لانتشار الإسلام السلفي المدعوم من السعودية.

أدى ســـقوط نظـــام الإخـــوان المســـلمين في مصر، الـــذي لم يدم طويلًا، يوليو/تموز 2013، إلى تقليم أضافـــر انتفاضات الربيـــع العربي، وشعرت بارتدادات سقوطه الحركات الإسلامية الســـنية في جميع أنحاء المنطقة، التي وصلت إلى السلطة من خـــلال العديد من الثورات الشـــعبية.

وفي اليمـــن، فتحـــت فصـــلاً صعبًا أمام المنتســـبين إلى جماعة الإخوان المســـلمين. ولم يساعد تطور الأحداث اللاحقة في تونس وانهيار نظام عمر البشـــير المتحالف في السودان في أن يجعل مـــن صباحاتهم أفضل بعد ذلك قط.

هجرة متتالية.. واستئصال الحزب

وكانت القاعدة الشـــعبية لحزب الإصلاح وأذرعه الإعلامية منشـــغلة بالوقـــوف إلى جانب جماعة الإخوان المســـلمين في القاهرة عـــام 2013 وأوائل 2014، كما نظم حزب الإصلاح مظاهرات في العاصمة اليمنية صنعاء دعمًا للرئيس الســـابق مرسي، الذي كان في ذلك الوقت في السجن. وفي هذه الأثناء، كان الحوثيون يحكمون ســـيطرتهم على محافظـــة عمران ويتقدمـــون نحو صنعـــاء. وبحلول الوقت الـــذي أدرك فيه الحزب التهديد، أصبح مصيره متشـــابكًا مع جهات فاعلة خارجية، وكان قد تراجع تمامًا دوره في معالجـــة التحديات الداخلية التي يواجههـــا اليمن لصالح أولويات أخرى.

وبدأ قادة حزب الإصلاح بمغادرة البـــلاد، وكان رجـــل الأعـــمال الثري والسياسي حميد الأحمر من بين أول من فروا. غادر الأحمر، الذي كان والده الراحل عبد الله الأحمر من بين القادة المؤسسين لحزب الإصلاح، اليمن إلى إســـطنبول مع اقتراب الحوثيين من صنعاء في سبتمبر/أيلول 2014. ولم تعد الملاذات التاريخية للجماعة، مصر والمملكة العربية الســـعودية، ملائمة لأعضـــاء الإصـــلاح الذين فـــروا مع اشتداد الحرب. كان النظام العسكري في مصر قد ســـجن مـــرسي وقام باعتقـــالات جماعية لأعضاء الإخوان المســـلمين. وفي الرياض، أدى صعود محمد بن ســـلمان إلى تقويض علاقة الإخوان المسلمين بالســـعودية، مما دفع الإسلاميين إلى الهجرة الجماعية من الرياض إلى إسطنبول.

وســـعيًا وراء العبرة والمعنى في التاريـــخ والجنـــة، أطلق أحـــد قادة الإصـــلاح على هـــذه الهجرة اســـم «الهجـــرة الثالثة إلى الحبشـــة»، في إشـــارة إلى هروب أصحاب محمد إلى إثيوبيا عندما واجه أتباع الدين الجديد حينها الاضطهاد في مكة.

ونظرًا لأهمية إسطنبول المتزايدة بالنسبة لحزب الإصلاح، افتتح الحزب مكتبًـــا تنفيذيًا في المدينة عام 2016. ويشـــبه الوجود الاصلاحي في تركيا في اليمن، حيـــث يوجد مكتب في كل محافظة، ويتعدى مكتب اســـطنبول الأهمية التي توليها أنقرة فعليًا لليمن. وتعزز هـــذا الاتجاه مع مقاطعة قطر عام 2017. وبدأت إقامة قادة الإصلاح في إســـطنبول تمتد من أشـــهر إلى سنوات.

امتيازات تركية

وأشـــار الباحث في برنامج الشرق الأوســـط وشـــمال إفريقيا في مركز الأبحاث البريطاني «تشاتام هاوس»، فارع المسلمي إلى أن ســـنوات الأزمة مع قطر، كانت هـــي الأصعب والأكثر عزلة بالنسبة لقادة الإصلاح في المملكة العربية السعودية. فجوازات سفرهم مليئة بتأشـــيرات متعددة الســـنوات لدخول قطر، لكنهم كانوا يعلمون جيدًا أن زيارة رعاتهم في الدوحة ستخاطر بعلاقاتهم في الريـــاض، المتورطة في الحرب في اليمن.

وأضاف: من ثم، أصبحت إسطنبول وجهة أكـــثر مثالية للعديـــد من قادة الإصلاح. لقـــد تمتعت ببيئـــة مواتية للاســـتثمار –وهي ســـمة نادرة لكبار قادة الحزب– ونظام يعيش في ســـلام مع جماعة الإخوان المسلمين ومتسامح مع أيديولوجياتها. بالإضافة إلى ذلك، أتاحت تركيا للإخوان مساحة لتأسيس مجتمعاتهم وتشكيل سياسات الشتات العربي. وقد احتضنت السلطات التركية انتشـــار القنـــوات التلفزيونية المؤيدة للإخوان والتـــي تبث من إســـطنبول (بتمويـــل كبير من قطـــر ومرخصة قانونًا من قبل السلطات التركية)، مثل قناة بلقيس، وتلفزيون يمن شـــباب، والمهريـــة. وفي تركيا، بدأ الإصلاحيون مؤخرًا أيضًا إجراء محادثات دبلوماسية غير رسمية مع الإيرانيين، بشكل آمن وبعيدًا عن أعين السعودية، خاصة بعد هجـــمات 7 أكتوبر/تشرين الأول في إسرائيل.

كما أقام بعض المغتربين من حزب الإصلاح علاقات وثيقة مع أجهزة الأمن التركية، مما سمح لهم بامتيازات معينة للإقامـــة والاســـتثمار والتنقل بحرية نسبية. على ســـبيل المثال، قبل وفاته، سُمح للزنداني، زعيم الإصلاح الذي تم تقييد أنشـــطته وحركاته وضيوفه في الريـــاض، بالتبشـــير في جميع أنحاء تركيا مع حماية أمنية حتى سن متقدمة وتدهور حالته الصحيـــة مما حد من أنشطته. واليوم، يدير اثنان من أبنائه مصالحه التجاريـــة والمالية في تركيا نيابة عنه. ومن بـــين الآخرين الأحمر، الذي يدير إمبراطوريتـــه التجارية من إسطنبول، وزعيم الميليشيا التي تمولها قطر حمود المخـــلافي. كان لدى هؤلاء الرجال الكثير من المال، ولم تمانع تركيا في اتباع سياســـاتهم جانبًا. بالنسبة للأتراك، فإن مســـألة ما يجب فعله مع زوارهم اليمنيين يمكن أن تنتظر.